السقوط

دفعتَني من على شفا حفرةٍ في غياهب الظلمات.. بعيدًا عنك.. دفعتَني متعمدًا لأسقط.. لأهوى وأضيع.. لا، إياك أنْ ترسم عليَّ دور البريء.. فقد كنت تعلَم ما تفعل، ولمْ يهزّك شيء.. وقفت تتابع السقوط، وتَسمع آثار الصراخ مني وأنا أضيع.. بابْتِسامَتِكَ الصفراء.

رأيتَ فمي المفتوح، وجحوظ عيني.. يداي اللتان تتحركان في كل اتجاهٍ.. وأنا أغِيب وأغِيب بعيدًا، وأردد:

ـ لماذا؟ لماذا؟ أهكذا تكون النهايات؟!

لحظتها، قَطَعْتَ عني المُحال.. وتركتني في حسرةٍ.. فقد كان سقوطي مُدوّيًا.. تهاويت أمامك شبحًا بعينين مكسورتين وشَعْرٍ منكوش.. وإذا بي في حفرةٍ، وبجانبي أكوام من الذكريات.. حرَّكتُ رأسي حركةً خفيفة.. الألم كان شديدًا حتى دمعتْ منه عيناي.. فحرَّكتَ أنتَ قدمك لتثير الرمال.. جئت بجبروت تغطِّيها.. تخفيها وتدفنها.. وتدفنني.. فعلتَ كل ذلك، وكنتَ تُريد مني فقط الثبات في استقبال الأقدار، وقبول كل الأعذار.. لطالما رددتَ على مسامعي وكأنَّه شيءٌ مُعتاد:

ـ هذا ما اختارته لنا الأيام وليس بيدي شيء.

أدرت ظهرك، وابتعدت خطوات.. شاهدتُ أقدامك ترحَل، وفي كل خُطوة كنت تطأ الأرض، تعلِّق بشرِّك حذائك شيئًا من الذكريات.. سقطت دمعتان أحرقت وجنتي.. وأنت تُكمل مسيرتك، وتبتعد، وتَرحل بكل برودٍ.. ثم توقفت لتتدثر بعباءتك السوداء، وارتديت قناعك القديم..

ـ آاااه لم أره منذ زمنٍ بعيد.. متى كان ذلك؟ متى؟

تذكَّرت، يوم تشاجرت مع الأحباب، لمَّا نصحوني قائلين: هذا لا يَصلُح لقلبكِ.. هو أغلى مِن أنْ يكون لمثله.

ـ يا لمرارة الغباء.. كمْ كنت ساذجةً، حتى لا أفهم وأستمر!

سقطت دمعتان أشد حرارة من سابقتيها..

ـ ماذا يفيد الندم الآن؟

لا صوت يَخرُج مني.. مع كل تلك الأوجاع..

ـ لا لنْ أقبل.. لن أستمر بهذا العذاب..

أغمضت عيني.. وغفرت لنفسي خطيئتك..

ـ نعم، أخطأت يوم اخترتك.. وغفرت أيضًا لقلبي المسكين.. غفرت له رغم كمّ الضياع.

مددتُ يدي اليُمنى.. حاولت أنْ أمسك بأي شيءٍ.. حرَّكتها، وشددت أصابعي.. رغم الألم.. أمسكت حجارةً صلبة.. تشبَّثت بها، ثم نهضت تاركةً حضن الأحزان..

نهضت بكل ما أوتيت من وجعٍ.. نهضت أقاوم الصراخ.. وأنا أردد:

ـ ما كل هذا الألم؟

ما عاد يفيدني شيء.. ثبَّتُّ أقدامي بقوة في الأرض بالتدريج.. والأوجاع تزداد مني، ومعها الدماء.. منبعها صدري المُمزَّق.. وكلي إنصات، وتكرار لقول عقلي:

ـ «مثلي لا تضنيه أحزان وأشباح».

فتحتُ عيني المُتورِّمة بقوة.. ومسحت الدماء عن وجهي.. وأدرت نظري في المكان.. أدركته.. وعرفت بُعد المسافات.. وبدأت التحرك..

نعم، اهتززتُ كثيرًا، ولَكِنِّي لمْ أتوقف، مشيتُ خطوة.. خطوة.. تتبعها خطوات.. وكلما وطئتُ الذكريات بقدميّ.. كلما تشبتتُ أكثر، وازدادت مني الخطوات، وابتعدتُ عن غياهب السقوط والظلمات.. واصلتُ السير، ولمْ ألتفت أبدًا خلفي.. لمْ أكن لأرى المتروك أرضًا هناك.. قلبي المسكين.